فلسطين

محمود درويش

الخروج الثاني من سيناء

اذهب الى الحرب .. تصل الى الولادة .
والآن نولد ، نتجدد ، ونبلغ عمر الجدارة .
الآن نذهب الى الموت الذي نختاره لننقلب على الحياة الموروثة .
نقف اليوم لالغاء الهدنة التي عقدناها مع ريح الصدفة .
ننتمي الى العالم حين نخالفه . ننتمي الى حياتنا حين نهددها .
ننتمي الى الوطن حين نستبدل صلواتنا بالقذائف ..
ننفجر ، ونفجر .. هكذا تكون الاعياد .
ونحن الآن في اليوم السابع ، اليوم « فرغ الرب من عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع واستراح » .

بارك الله اليوم السابع . ودمنا يبارك هذا اليوم السابع . فالآن نرقص الموت ، ونمد يدنا حبلا الى الوطن ، والله يتنازل عن اسمه القديم اليوم ، ويأخذ اسما جديدا هو الوطن . الله هو الوطن ..

نحن الآن في اليوم السابع ، لا نرتاح من العمل ، ولكننا نرتاح من الهزيمة . اليوم عطلة الهزيمة .

نحن اليوم نقشر خرافة العدو ، ونعيد تكوينها كما يريد دمنا .
في البدء ، بدئنا لم يكن القول ولا الفعل ـ في البدء كانت الهزيمة .

وفي اليوم الاول من هذا التاريخ الذي يكتبه دمنا ، في سفر تكويننا الجديد ، كان عيد الغفران عند اعدائنا الذين لم يكفروا عن خطاياهم ، فقمنا بدلا منهم بالتكفير عن خطايانا بحق الوطن الذي لم يتحرر ، وبحق الطفل الذي لم يولد ، وبحق المستقبل الذي لم يصل . انه يوم غفراننا ويوم جنونهم .

واليوم ، تبدأ الخرافة مرة اخرى في اسبوع واحد ننازلها عن مواقعها . الخرافة تستسلم . ففي هذا اليوم ، اليوم اليوم ، يحتفل الاعداء بعيد ثان في اسبوع واحد هو عيد المظلة : وهو يوم خروجهم من سيناء الاولى .

اليوم خرجوا من سيناء في الاسطورة .
واليوم يبدأ خروجهم من سيناء بقوة الجندي المصري .

التاريخ لا يعود الى الوراء ، ولا يكرر نفسه .
ولكن الذين يربطون مستقبلهم بالخرافة ، ويقلدون الخرافة ، وينتمون الى الخرافة ، ويراهنون بالخرافة ـ يعيدهم التاريخ الى الوراء ، الى الوراء ، ويجد نفسه مضطرا لتكرار نفسه .
حتى الخرافة تنقلب عليهم .
ونحن نذهب الى الحرب فنصل الى الولادة .

المحرر
١٢ تشرين الاول

نحن نقاتل .. وهم يقامرون

ان تطول الحرب ... ان تطول ـ معناه اننا قادرون على هزيمة العدو ، بعدما هزمنا الهزيمة في نفوسنا منذ اللحظة التي احتكمنا فيها الى النار .

النار .. النار هي القرار الوحيد ، الوحيد الذي يؤدي تنفيذه الى استرجاع شرفنا الانساني من مهانة ربع القرن .

النار .. النار هي المحكمة الوحيدة ، الوحيدة الجديرة بأن تشرع العدالة بيننا وبين مثل هذا الطراز من الاعداء .

والنار ، هي التجربة الضرورية لاختبار معدن هذا الانسان العربي ، الذي لم يمارس اختباره منذ مدة طويلة ، فكاد يتوحد في الشك .

وان تطول الحرب .. ان تطول ـ معناه ان تكتمل عملية التحقق من أصالة هذا المعدن ، وان تنضج عملية صهر الانسان العربي في قيم مختلفة وقناعات جديدة .

نحن لا نخوض معركة من اجل انتصار سريع ورخيص ، فمثل هذا الانتصار ـ اذا كان ممكنا ـ سيكون ملامسا لممارسة الجماهير وليس معجونا ببخار دمها وتحرر ارادتها .

وان تطول الحرب .. ان تطول ـ معناه ان تتلاحم عمليتان تاريخيتان : انعتاق ارادة الجماهير العربية في خوض تجربتها الذاتية من ناحية ، واستنزاف العدو وتقليم اظافره من ناحية اخرى .

وان تطول الحرب .. ان تطول ـ معناه اننا نكسب حليفا قويا

استطاع العدو ـ فيما مضى ـ ان يجنده في قواته المقاتلة . هذا الحليف الخطير هو الزمن ، الذي يدفعه طول الحرب وصمودنا من منطقة الحياد الى الانخراط في صفوف جنودنا وشعوبنا . وفي هذه العملية ـ وهي بمثابة نقطة تحول هائلة ـ يأخذ انحياز الزمن الى جانبنا كل الطاقات العربية المتفرجة والسلبية ، يأخذها من مقاعد المتفرجين الى منطقة البركان المشتعل ، فيثبت طول الحرب .. يثبت من جديد وحدة هذه الامة المترامية من طنجة الى عدن ، ويثبت أصالة التحام لغتها وتراثها وترابها واحلامها .

وان تطول الحرب .. ان تطول في المكان والزمان ـ معناه ان نعتاد مرافقة مجرى التاريخ ، وان نعرف ان لا شعب ... لا شعب عبر التاريخ قادر على الانتصار بلا تضحية وبلا ثمن ، وان المعارك لا يديرها افراد جيوشنا الشجعان وحدهم .. فلنستعد لاستقبال الحرب في بيوتنا ، وفي أسرّة أطفالنا ، وفي مصانعنا . فهذه هي الحرب .

وان تطول ـ معناه ان يأخذ الفارق التاريخي الواسع .. الواسع جدا بين طاقاتنا وبين طاقات العدو مداه الكامل . نحن قادرون على امتصاص الخسائر وتعويضها . نحن قادرون على التكاثر . وهم عاجزون عن ذلك اذا طالت الحرب . لقد بدأوا الآن يدركون ان انتصاراتهم كانت طارئة في المقياس التاريخي ، وان قناعاتهم العنيدة ضرب من ضروب الجنون والاقتراب من الانتحار .

وان تطول الحرب ، اخيرا ـ معناه اننا سندرك اننا نقاتل .. نقاتل .

وسيدرك الاعداء انهم يقامرون بكل شيء حتى بالمستقبل .

وهذا هو الفارق بيننا : نحن نقاتل ، وهم يقامرون .

المحرر

١٣ تشرين الاول

هزيمة العدو في ذروة انتصاره

يمكن الظن .. ويمكن القول ان بذور هزيمة العدو قد نمت في ذروة انتصاره ، في معارك الخامس من حزيران . وهنالك رأي عسكري مجرب يقول ان ثمة نوعا من الانتصارات ينتهي بالمنتصر الى القبر .

كان انتصار اسرائيل عبئا ثقيلا لا تقوى اكتافها المحدودة على حمله . ولا يستطيع التطور الطبيعي لشعوب المنطقة على ابتلاعه . وكان بعض المفكرين والمؤرخين ينهم باللاسامية حينا وبالشاعرية حينا ، عندما كان يحذر الاسرائيليين ـ الذين لم ينتصروا ولكنهم وجدوا انفسهم يحظون بنصر بلا جدارة ـ من مفعول النشوة التي تعطل عمل العقل ، وتدفع المصابين بها الى الثقة المطلقة بقدرة ذاتية طارئة بوسعها ان تبطل مفعول قوانين التطور .

وهذا ما اصابهم :

لقد تغلغل في الوعي الاسرائيلي ايمان غير قابل للمناقشة بان الاقدار تدلهم بامتنان . وتجسدت هذه الاقدار ، في نهاية المطاف ، بأن طائرة « الفانتوم » مثلا ـ حين تحمل نجمة داود ـ تشكل ضمانا ابديا لامنهم المستحيل . لقد صار الارتكاز على أجنحة هذه الاسطورة العصرية من جهة ، وعلى حائط المبكى الذي يمثل حيوية الاسطورة القديمة من جهة اخرى ، صار بديلا للاحتكام الى وسائل اخرى اكثر منطقية للبحث عن مستقبل أقل تطاولا على تاريخ المنطقة وأقل استفزازا لشعوبها .

استبدلوا الواقع بالخرافة ..

واستبدلوا التاريخ بالسحر ..

ولم يعد يهمهم ، ابدا ، تحقيق ما وعدوا به انفسهم من تشكيل ذات قومية جديدة ذات تقاليد ثقافية مختلفة ، تشكل تفردا في هذا الشرق المتخلف !! بدلا من ذلك ، كرسوا كل جهودهم « ذات الطابع الغربي » لبناء حضارة العنف والارهاب ، ولاعطاء التاريخ برهانا عصريا على بطلان مفعوله . فكثيرا ما قالوا ، علانية ، ان هزيمة الصليبيين في المنطقة لا ترجع الى حتمية تاريخية تفاعلت معها ارادة شعوب المنطقة ، فان الاسرائيليين اذ يتعلمون من دروس هذه التجربة ، مطمئنون الى ان هزيمة زملائهم السابقين يمكن تلافيها بالتمسك بالاسباب التي عمقت اغتراب الصليبيين عن المنطقة وسببت هزيمتهم . ان الداء نفسه يمكن ان يصير دواء في صيدلية الفلسفة الصهيونية !

لقد ارتاح الاسرائيليون ، الذين قد يعتزون باعادة روح اسبارطة الى الحياة ، الى الثقة المطلقة بنصرهم في الخامس من حزيران ، دون ان تعنيهم معرفة ان هذا النصر السريع لم يحل مشكلة واحدة من مشاكلهم الاكثر حيوية وهو قبول شعوب المنطقة لهم ، ولكنها رسخت هذه المشاكل وكرستها ، ودفعت العرب الى التفكير بتوظيف المزيد من طاقاتهم في قضية العداء لاسرائيل . وان حصول اسرائيل على المزيد من الاراضي التي تحتاج الى المزيد من جهد حراستها والمحافظة عليها قد ألغى « الطموح اليهودي البريء » الى التنمية وخلق طراز حياة اوروبي في آسيا ، لان المزيد من النصر يعني المزيد من استنزاف الطاقة الاقتصادية للمحافظة على هذا النصر .

ولقد اطمأن الاسرائيليون ، الذين سحرهم العثور على قبور شخصيات التوراة ، الى اليقين المطلق بأن نتائج هزيمة العرب ستكون ابدية ، وان مقدرة العرب على مجرد التفكير بمحاربة من استولوا على اوطانهم ستكون نوعا من الانتحار الذي لا يقوى عليه العرب . وحين سئل رئيس اركان الجيش الاسرائيلي دافيد اليعازر ـ الذي يدلعونه باسم داود ـ قبل شهرين : هل يستطيع اربعة ملايين يهودي المحافظة ، الى الابد ، على توازن القوى ضد مائة مليون عربي ، وفي ظروف متغيرة ؟ اجاب داود بغرور : ممكن لعدد كبير جدا من السنوات . بعد شهرين فقط وجد القائد الاسرائيلي نفسه في مواجهة لا يعرف نهايتها .

وصدق دايان ان طلعته الشهيرة ، في المجلات والصحف الغربية ، مجرد طلعته المحصنة ضد سوء الطالع ، كفيلة بتفتيت طاقات العرب ومواردهم ومكانتهم التاريخية وقدراتهم البشرية . ودعا ، قبل شهرين فقط ، فوجا جديدا من ضباطه الى تحويل خطوط وقف اطلاق النار الى حدود دائمة لاسرائيل . وأكد ان الاسرائيليين يستطيعون ، بقوتهم الذاتية ، الاستمرار على هذا الوضع لسنوات طويلة طويلة . وبعد شهرين فقط يجد دايان ان معجزة الردع الاسرائيلي معرضة للفتك .

لقد فقدوا حاسة الخوف التي كانت تشكل جوهر وجودهم ، واستبدلوها بحاسة الحظ الذي لا يخالفهم . فوجدوا انفسهم ، هذه الايام ، يسددون حساب الصلافة والاستهتار بالآخرين والتطاول على التاريخ .

وعاد السؤال المحرم الى الوجود : هل تستطيع دولة ان تنام على الحراب ؟ هل تستطيع مثل هذه الدولة التي تجمع طوائف وجماعات لا توحدها الا الحرب مع العرب .. هل تستطيع البقاء ؟ كانت الحرب ـ وما زالت ـ هي المضمون الوحيد ، الوحيد لسعي المجتمع الاسرائيلي الى التبلور . وكان الانتصار الابدي المضمون في هذه الحرب يشكل محور التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين . فماذا يحدث .. ماذا يحدث حين يقع خلل في هذه المعادلة ـ القاعدة ؟

هل تفقد اسرائيل ضرورة بقائها ، وهل يفقد التجمع الاسرائيلي مبرر وجوده ؟

لم يكن الغرور الاسرائيلي يتحاشى هذا السؤال وحسب . ولكن كان باحتكامه الى العنف المسلح والى الخرافة الدينية المسلحة يقمع محاولة التفكير لدى الاسرائيلي . ولعل التوقف عن التفكير بالمستقبل واعادة النظر في محالفة القدر وانحلال الحس التاريخي فيهم بعد انتصارهم في حرب حزيران هو ما نعنيه حين نقول ان بذور هزيمتهم قد نمت في ذروة انتصارهم ، الذي ادى بهم الى احتقار الفكر والمفكرين والاستهتار بالتاريخ والمؤرخين . سخروا كثيرا من مؤرخهم البروفسور تلمون الذي خاف انتصار ١٩٦٧ « لان القوة لا تخلق الحق » . وسخروا من توينبي الذي قال ببطلان قيام اسرائيل ـ في المنظور التاريخي ـ لانها قامت على الظلم ، ولانها عاجزة عن تقديم حل للمسألة اليهودية ، وانما تلحق الظلم باليهود انفسهم ليس داخل اسرائيل فحسب ، بل خارجها ايضا ، اذ تجعلهم مزدوجي الانتماء . وسخروا من اسحق دويتشر الذي قال ان « نصر اسرائيل العسكري سيتكشف في مستقبل قريب عن انه كان في الواقع كارثة، وبالدرجة الاولى لدولة اسرائيل نفسها . لقد شاهد دويتشر ـ وهو من اصل يهودي ـ « المشاهد التي تعرضها شاشة التلفزيون .. شاهد الفاتحين وهم يعرضون صور غطرستهم وتعجرفهم ووحشيتهم ومظاهر شوفينيتهم والاحتفالات الجنونية التي احيوها اعلانا عن نصر بلا مجد ، كان ذلك كله يتناقض تناقضا وحشيا مع الصور التي كانت تظهر آلام العرب واحزانهم وصفوف اللاجئين وصور الجنود المصريين الذين ماتوا عطشا في الصحراء . وتأمل كذلك ان ارى الحاخاميين بقاماتهم العائدة للقرون الوسطى يرقصون فرحا امام حائط المبكى . وكان يخيل الي اني ارى البلاد وقد اكتسحتها نزعة الظلاميين التلمودية . ها هم اليهود اليوم يمثلون في الشرق الاوسط دور عملاء المصالح الامبريالية ، انهم بذلك يخلقون حقد جيرانهم وكراهيتهم ، هؤلاء الجيران الذين هم ضحايا الامبريالية . وهذا بلا شك أسوأ مصير يواجهونه . اما العرب ، فسيعرفون كيف يستخرجون الدرس من هزيمتهم ... » .

ها هم العرب يعرفون .

وها هم الاسرائيليون يحققون شيئا واحدا : لقد حولوا الخوف المصطنع من العرب الى خوف حقيقي . وهم حين يسعون الى نصر جديد ، فانهم يسعون في آخر الامر الى هزيمة جديدة ، لان بذور هزيمتهم قد نمت في ذروة انتصارهم .

المحرر

١٤ تشرين الاول

العرب قادمون

□ انتظرنا ايها العالم . انتظرنا قليلا . فاننا قادمون اليك . مشغولون ، الآن ، ببناء الايدي التي تصل اليك .

منكبون ، الآن ، على تربية الاقدام التي تحملنا اليك .

غارقون ، الآن ، في عملية تركيب الجسور التي يعبر عليها صوتنا اليك .

□ انتظرنا ايها العالم . انتظرنا قليلا . فنحن الآن نتعلم المشي على الارض . مرة اخرى ، نتعلم المشي . فلا تلعب كثيرا بالكرة الارضية التي تهتز . لا تلعب كثيرا . فعما قليل يصير بوسعنا ان نعيدها الى التوازن ـ اذا شئت . وعما قليل يصير بوسعنا اندفعها الى الانفجار اذا شئت .

نحن الآن نتعلم فن المشي .

□ انتظرنا ايها العالم !..

ها هو وجهنا يخرج من قاع النيل كحمامة كانت تغرق .

وها هي يدنا تخرج من فرن الصحراء كتحية كانت تحترق .

وها هي روحنا تعود من السبي ، ترتدي جسدا من قمح وشمس .. وتعود .

ـ متى تذكرتم ، متى ؟ يسألنا العالم .

ـ حين نسيتنا تماما ـ نقول للعالم .

ونواصل المجيء .

ـ ألا تعتذرون ؟ يسألنا العالم .

ـ لن تعطينا المغفرة . ان موتنا ، وحده ، هو الذي يأخذ شكل المغفرة . ونحن نعتذر .. نعتذر لاننا تأخرنا في الرحم ، ولكن الولادة عسيرة في هذه الايام ، والجنود الغزاة يحاصرون مدخل الرحم . وانت الشاهد المحايد ايها العالم .

ـ القابلة تأتي مع الجنين ، من الداخل تأتي القابلة .. من الداخل . وها انتم تعرفون .

□ انتظرنا ايها العالم ! انتظرنا قليلا ، فان الولادة العسيرة ، تملأ المدن ، ونحن قادمون اليك .

تأخرنا .. تأخرنا لاننا كنا نبحث عن طريق آخر ، ولم تخبرنا ان دهاليز الدم الخصبة هي الدرب الوحيد الذي يفضي اليك . لم تخبرنا ان باب الرحم هو فوهة البركان .

.. في طريق آخر ، سقطت ايدينا في النيل .

وفي طريق آخر ، وقعت وجوهنا في ليل اغلقت عليه الباب .

وفي طريق آخر ، ضاعت دمشق المكان عن دمشق الزمان .

وشاع العقم .

□ ايها العالم ! لا تصدق انها حرب .

ـ ما هي اذن ؟ يسأل العالم .

ـ انها اعلان الحضور . وانها طريق الوصول اليك . فللحرية صوت يشبه صوت الحرب ، لكنها تختلف تختلف . واذا كنت حرا ايها العالم ، او اذا كنت تحب الحرية ، ستدرك انها ليست الحرب، ولكنها ضجة الحرية .

انتظرنا ايها العالم ، انتظرنا قليلا ، فاننا نتعلم المشي على الكرة الارضية ، ونعيدها الى التوازن .

حدق في وجوهنا ..

هذا الدم : فرح .

وهذا الدخان : حمام .

ومن فوهة هذه البندقية : ينهمر السلام على الارض الحزينة .

المحرر

١٥ تشرين الاول

مسادة تسقط

انهم يحملون الوفاة منذ جاءوا الى هذه الولادة .

لقد توحدوا بالخرافة ، واقنعوا انفسهم بانهم يعيدون التاريخ الى سن الطيش .

مسادة .. مسادة .. تسري في شرايينهم وتسكرهم وهما وغطرسة « مسادة لن تسقط مرة اخرى . مسادة لن تسقط » ولم يتعلموا من الابادة الا التدرب على ابادة الآخرين . لانها الوسيلة الوحيدة لتشكيل ذاتهم الجديدة .

وفي عيد الغفران ، لم يحاولوا التكفير عن ذنوبهم كما اوصاهم الرب ، الذي لم يأخذوا من وصاياه الكثيرة الا ما قاله على أسوار أريحا . في عيد الغفران كانوا ، بدلا من ذلك ، يحتفلون بسقوط أعدائهم .

ولكننا نحن .. نحن الذين اندفعنا ، في يوم غفرانهم ، للتكفير عن ذنوبنا التي ارتكبناها في ثلاث حروب رخيصة ، فصار يوم غفراننا العظيم عن آثام ارتكبناها بحق تراب كدنا نشك بأننا جديرون به ، وبحق اطفال كدنا نشك بأننا آباؤهم .

كان الحزن يتصبب من مسام جلودنا .
وكان الفرح يتصبب من أحذية جنودهم .
وفي يوم الغفران كفّرنا عن هذه الخطيئة .

لم يتعلموا شيئا . وكانوا يتقنون لغات كثيرة أنساهم النصر الرخيص اياها ، وما عادوا يفهمون الا هذه اللغة التي نخاطبهم بها اليوم . نشكرهم ام نرثيهم ؟ فمهما تكن النتائج .. مهما تكن ، لن تكون الا اننا اتقنا الآن لغة الجدارة بالحياة والوطن والعالم ، وحرمناهم منها .

لقد انتصرنا ، انتصرنا في اللحظة الاولى التي أطلقنا فيها النار عليهم وعلينا في آن واحد . لقد قتلنا اوهامنا القديمة ولغاتنا البائدة . لقد انتصرنا على الغزو الداخلي المتغلغل فينا قبل تغلغل الاعداء في أراضينا . لقد حررنا ذواتنا من الاحتلال المعنوي والنفسي، وحررنا شرفنا من التسكع على أرصفة الحياة ، وحررنا جلودنا من الغزاة الذين كانوا يرقصون تحت جلودنا .

هذا هو النصر الاول والاكبر ـ تحرير الذات والارادة ، ثم يكون تحرير الارض سهلا كهذا الموت الشائع في هذه الساعات التي نعيد فيها التاريخ الشرقي الى سن الرشد .

« مسعّادة لن تسقط . لن تسقط ثانية . لم يتعلموا شيئا مرة اخرى . لم يتعلموا شيئا يحميهم من خطيئتهم ومن غضبنا . لم يتعلموا الا التشبث بأسباب اغترابهم عنا وعن العالم . ومسعّادة ليست ، بالنسبة لهم ، قصة تاريخية تتحدث عن حصن قديم دافع عنه مقاتلوهم القدامى حتى الموت . لقد حولوها ، منذ جاءوا الى فلسطين ، الى حالة نفسية والى عقدة . عقدة يحملونها وينتحرون .

يحاربون وينتحرون .
ينتصرون وينتحرون .
يتوسعون وينتحرون .

ان مسعّادة التي آمنوا بأنها قوتهم لم تكن ، في واقع الامر ، الا مصرعهم . فان اختيار حالة الحصار حلا لحالة الاغتراب عن المنطقة لا يكون في آخر الامر الا ضربا من ضروب الانتحار . وعلى هذا الاساس ، فان كل انتصار اسرائيلي هو انتحار اسرائيلي في الوقت ذاته ، وعقدة مسعّادة هي الانتحار التاريخي البطيء ، حتى لو أوهمتهم حروب رخيصة ، لم يقاتل فيها العرب ، بأن التاريخ قابل للتعديل الخاطىء .

لقد دكّت الخرافة . الخرافة دكت من اركانها في أعماق النفسية الاسرائيلية . والتجربة التاريخية على الطريقة الاسرائيلية اثبتت فداحة اخطائها . واذا كان هذا ما حدث للنفس والخرافة ، فما قيمة الحجارة القديمة التي حولوها الى حالة نفسية والى عقدة ؟ لم تسقط مسعّادة ؟ صحيح ، ولكن الرمز والمعنى والاسطورة تهاوى . انكسر اليقين المطلق . وقع الشرخ بين الواقع والخرافة . تغلغل الشك بالقيم التي كانت مناقشتها محرمة . اقتنع الجسد الاسرائيلي بأنه قابل للجرح . التقى الموت بالضربة فصارت مسعّادة قابلة للكسر . ومهما تكن النتائج ، مهما تكن .. فقد وقع الخلاف بين الاسرائيلي وبين قناعاته . واهتزت مسعّادة من اركانها .

ماذا يعني ذلك ؟

يعني ، بالنسبة اليهم ، ان التباهي بحالة الحصار هو مباهاة بالجنون . ويعني ان اسئلة كثيرة جدا ستضمن شرعية الطرح : هل كانت التجربة صوابا ام خطأ ؟ وهل كان المؤرخون يكذبون حين قالوا ان فلسطين ليست وطن كل اليهود ، وان اقامة اسرائيل ليست حلا للمشكلة اليهودية ؟ سيكون بوسعنا ان نتساءل بعد مدة : أليس اصرار الصهيونية على انشاء دولة يهودية في فلسطين رداً على الكارثة التي حلت بهم ـ كما يقولون ـ هو مواجهة كارثة بكارثة أفدح ؟

هذا هو السؤال الذي كان ينبغي عليهم ان يطرحوه في يوم غفرانهم الذي صار يوم غفراننا . كان ينبغي عليهم ان يتركوا خلفهم جسرا للعودة ، ان يتعلموا شيئا من تاريخهم ومن تاريخ غيرهم . فوقعوا ضحية انفسهم ، ضحية غرورهم واستهتارهم بهذه الشعوب العربية التي أذلوها حتى القتل . لم يعرفوا انهم ـ في آخر الامر ـ غرباء عن المنطقة . غرباء بلا جذور . لم يحاولوا ان يقيموا جذرا حقيقيا واحدا لهم . استبدلوا الجذور بالنابالم ، والنابالم لا يستطيع كسب حق في نبتة صغيرة . ليسوا اكثر من سفينة في بحر . كيف تستطيع سفينة طائشة ان تستفز البحر الى هذا الحد ؟ لقد خدعهم هدوء البحر العربي الذي تحرك الآن لمعاقبة السفينة الطائشة .

مهما تكن النتائج ـ مهما تكن ، فان شيئا واحدا تاريخيا قد حدث ، هو ان البحر الهادىء قد نطق حركة وفعلا وغضبا ، وان السفينة الطائشة قد ادركت انها تطفو على سطح ماء متحرك ، وانها هي التي اختارت ان تقطع الصلة باليابسة .

يقول البعض ـ من فرط غياب الثقة بالنفس ـ انها مسرحية ، وانها حرب تسوية لا حرب تحرير ، وانها مقدمة للمفاوضات مع العدو . ومهما تكن الاقوال ومهما تكن النوايا ـ مهما تكن ، فان بطولات الجنود العرب واستردادهم ثقتهم بالنفس ، وبرهنتهم على عمق الوطنية تمزق النص ـ الافتراء هواء هواء على مرتفعات الجولان وعلى رمال سيناء .

لم نفاوضهم ولم نقبلهم يوم كنا ضعفاء ، فكيف نفعل ذلك ونحن أقوياء !

ان مرحلة بأكملها تسقط الآن ، على الجانب العربي وعلى الجانب الاسرائيلي . صارت نوافذنا اوسع وتطل على عالم جديد . فمنذ أطلّت فوهة المدفع العربي على العدو ، كانت في الوقت ذاته تفتح ثغرة واسعة .. واسعة جدا في الافق العربي المسدود ، وكانت اطلالة على عالم جديد .. عالم لنا .

الدستور
١٥ تشرين الاول

وطن آخر

أبعد من سيناء ، وأبعد من الجولان ، وأبعد من فلسطين ـ هذا الذي يحدث .

ضع نقطة ، وابدأ سطرا جديدا . بوسعك الآن ان تستعمل مفكرة :

هؤلاء الجنود لا يخوضون حربا . ولكنهم يشعلون ثورة .
وهم لا يحررون وطنا مرة واحدة . ولكنهم يحررونه مرتين .
وهم لا يكتفون بطرد الغريب عنه ، ولكنهم يطردون عنه الاغتراب.

هذا الاغتراب كان حصن طروادة . لقد اغتربنا عن الوطن كثيرا ، واغترب عنا الوطن كثيرا . وصلنا ذات يوم الى نقطة خطيرة : كأنه ليس لنا ، وكأننا لسنا له ، وكاد يتحول الى ميراث بلا مستقبل .

من الآن .. من هذا الزلزال يجب ان نعرف انه لنا حقا وحقيقة . وليس لاحد فضل على آخر الا بهذا الدم الذي يجرفجدار الاغتراب مع حصون الغزاة .

ـ لا تتورط في الفرح كثيرا ! هكذا يقول اصحاب العواطف الموضوعية الذين قد يخشون على صحة افكارهم اكثر من خشيتهم على وطن .

ولكن فقراء الوطن يموتون الآن من اجل تكوين هذا الفرح الذي قد لا يكون كله لهم . الفقراء يموتون ببهجة . وماذا كان الوطن يعطيهم غير الحق في الموت ايام الحرب ؟ الفقراء يموتون بدلا منا ومن أجلنا .

ـ العبيد يصنعون قيودهم !

والعبيد يكسرون قيودهم الآن ، ويصنعون المساواة غدا . لقد تدربوا على فن الحرية ، وسيكون الوطن لهم ، لانهم حرروه مرتين ، وبنوه مرتين .

ضع نقطة ، وابدأ سطرا جديدا . بوسعك الآن ان تستعمل مفكرة :

وطن آخر خلف المتاريس .. وطن اخر ، لا ينقسم الناس فيه الى فريقين : فريق يتورط في الفرح ، وفريق يتورط في الحزن .

ـ هذا كلام سابق لاوانه ! يقول اصحاب العواطف الموضوعية الذين يفقدون الثقة بالمعركة اذا لم يصدر بلاغ عسكري كل خمس دقائق .

من أجل هذا تعرضنا للغزو : لعرقلة سعينا الى تطبيق العدالة ، وللحيلولة دون تحولنا الى حياة جديدة ذات نظام اجتماعي جديد ..

ـ وماذا أيضا ؟

افتح النافذة غدا على ميدان الايام العادية . اذا رأيت جياعا وعراة فاعلم اننا انتصرنا في الحرب ، ولم ننتصر في الثورة . واعلم اننا لم نكرم اولئك الشهداء الذين جعلونا نفتح ابوابنا كل صباح ونقول :

صباح الخير ايها الفرح !

المحرر
١٦ تشرين الاول

الحقيبة والمفتاح

ليتني سمعت نصيحة زوجتي ، وسافرنا الى السويد » .
هكذا قال طيار اسرائيلي أسير في دمشق .
« أين مفاتيح البيوت ؟ وأين الحقائب ؟ » .

هكذا تسأل ، الآن ، عائلات عربية كثيرة كان الموت الاسرائيلي قد اجلاها عن منازلها في سيناء وضفاف قناة السويس ومرتفعات الجولان .

ان « حرب حقائب ومفاتيح » تجري الآن ، بصمت ، على طرفي الصراع . تظهر نتائجها بجلاء على الجانب العربي ، وتتكون مقدماتها بحياء على الجانب الاسرائيلي .

المهاجرون العرب يعودون ، ويجلسون الآن على الحقائب . والمهاجرون اليهود يفكرون ، الآن ايضا ، ويعيدون النظر بمصير مهتز وبوعد قابل للخيانة .

كانت الهجرة اليهودية الى فلسطين هي الشرط الاول لقدرة الفكرة الصهيونية على التجسد في كيان مادي . ثم صارت في الاعوام الاخيرة هي الشرط الاول لقدرة الكيان الاسرائيلي على تكريس الاحتلال والتوسع وهضم الارض .

ومن الصعب التسليم بالرأي القائل ان الحق الانساني فيهجرة الانسان من مكان الى مكان ينطبق على الهجرة اليهودية الىفلسطين. ليس هذا القانون مطلقا ، لان هذه الهجرة الصهيونية جاءت وتجيء لاجتثاث حق الانسان الفلسطيني في مكان على سطح هذه الكرة الارضية ، ولدفعه الى الهجرة الدائمة ، من جهة ، ومن جهة اخرى، فان هذه الهجرة ـ في ظروف الصراع ـ تعتبر هجرة أمنية لتثبيت الظلم والاغتصاب . والمهاجر اليهودي الذي اختار القدوم الى ارض فلسطين قد اختار ، بمحض ارادته الحرة ، ان يكون جنديا في جيش الغزاة .

والآن ، تنكسر الارض المعدة لاستيعابه . يتبخر الامان الموعود . تسقط حماقة المقارنة الصهيونية بين النظام الاجتماعي الاشتراكي وبين النظام الرأسمالي . هنا ، تطرح جملة اعتراضية هذا السؤال القاسي : كيف يضحي بعض اليهود بالحياة في ظل الاشتراكية الآمنة ، من اجل الحياة في ظل الاستغلال الرأسمالي والحرب ؟ كيف .. كيف يحدث هذا ؟

« أما ان نتكتل نتيجة الخوف . واما ان نتفتت من الضعف » .

هكذا يقول الاسرائيليون . وها هو التكتل الذي لا مضمون له الا الحرب ـ الخوف من العرب قد تنازل الآن اظاهر الضعف التي تظهر في القلعة الاسرائيلية . هل هي بداية التفتت ؟ من السابق لاوانه ان نجيب على هذا السؤال بيقين سهل . ولكن بوسعنا ان نلاحظ بوضوح ان سقوط التوسع سيؤدي الى سقوط الهجرة .

وان الحرب التي كانت مرادفة للحق وتكريس الحق ـ في نظر الاسرائيلي ـ لم تعد مضمونة النصر ، فوجد « الحق » الصهيوني نفسه في العراء ، وصارت الهجرة الى « ارض الميعاد » سفرا الى الجحيم .

لقد بدأت حرب الحقائب والمفاتيح .

فهل تتيقظ الآن حاسة السخرية لدى الاسرائيلي ؟ هل يقول الآن ما كان يقوله عشية الخامس من حزيران (نتيجة الازمة الاقتصادية والتوتر الامني) هل يقول انه يجب ان ننصب لافتة في مطار اللد .. تحمل الرجاء التالي :

« على المسافر الاخير ألا ينسى اطفاء النور في المطار » .

هل يقول ؟

المحرر
١٧ تشرين الاول

أزرق .. أزرق ..

☐ رأيت مياها كثيرة في حياتي ، ولكني لم ار ماء في مثل هذه الزرقة الداكنة .

☐ وشاهدت رمالا كثيرة فسيحة ، ولكنني لم اشاهد رملا ممتلئا بالوضوح والغموض معا مثل هذه الرمال الشرسة .

☐ وعشت أماسي كثيرة تحاذي المجهول ، ولكني ما عشت مثل هذا المساء الذي يتناوب علاقة عجيبة مع المجهول .

□ ورأيت جنودا كثيرين في حياتي ، ولكني ما رأيت ، قبل الآن ، كيف تقف عيون التاريخ على اصابع هؤلاء الجنود .

□ وعرفت الصبر والقهر والغيظ ، ولكنني أقرأ الآن ، لاول مرة ، صدر البركان المناهب للانفجار .

□ وتعرفت على أنواع كثيرة من الصمت ، ولكنني لم ار صمتا اكثر حكمة وقسوة من هذا الصمت الرابض ، كالاعجوبة ، على قناة السويس .

□ نحن نثرثر في كل مكان ، ابتداء من غرفة النوم حتى الذياع ، ونكشف في الفسنا مواهب مفاجئة في فن الحرب والعذاب والبسالة . ولكن الحقيقة الوحيدة تبقى هناك .. على ضفاف قناة السويس . وموقفنا من هذه الحقيقة الدامية هو ، وحده ، الذي يمنحنا حق الكلام عن الوطنية والقومية والاشتراكية وغيرها من القيم التي أوقفتها التطورات المفجعة على مفترق طرق خطير ، على ضفاف قناة السويس . ذلك لا يعني ، بالطبع ، ان فيمنا اصيبت بالشلل او يجب أن تصاب بالشلل الى حين الخروج من مفترق الطرق هناك ، ولكن يعني ان العلاقة بينهما صارت اعمق واخطر مما قد يتصور البعض ، وان التأثير المتبادل بينهما يترك آثارا قد تتشابه في العمق والمدى : لن نتمكن من التقدم بقيمنا نحو التنفيذ الجاد ما دمنا عاجزين عن التحرك هناك . ولن نتمكن من التحرك هناك ما دمنا عاجزين عن التقدم بقيمنا .

□ والحرب هناك لا تكتب بالحبر والمزاج . انها لغة الموت الحقيقية . وهي ليست قصفا اذاعيا يعقبه نشيد الختام السلبي . انها الصمت الفاعل الذي يعقبه انفجار البارود واللحم البشري . انها مهارة الموت الذي يرد الى التاريخ نكهته المجوجة التي اطلقها ذات يوم عندما كان مشغوفا بالمزاح .

ان زرقة السويس تشطرني شطرين » .

* * *

هذه السطور كتبتها قبل عامين ونصف (في مجلة المصور ٢٦ نيسان) عندما زرت مدن قناة السويس ، ووقفت ساعات طويلة على انقاض مدينة بور توفيق برفقة الجنود المصريين الذين كانوا ينتظرون اندلاع العاصفة النارية بصبر أسطوري . أسجلها الآن وأقبل الايدي التي صافحتها فأعطتني مجدا لا أستحقه !

المحرر ١٨ تشرين الاول

نداء ورجاء

الى الرفيق لي دوك ثو عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفيتنامي .

وصل الينا ، كسهم من نار ، ذلك القرار البارد حتى الجليد الذي اتخذته الاكاديمية السويدية بمشاركة هنري كسينجر لكم جائزة نوبل للسلام .

ان الشعب الفيتنامي العظيم ، بكفاحه الاسطوري ، قد قدم احدى المساهمات الكبرى في التاريخ لانقاذ الشرف الانساني والكرامة البشرية ، وأعاد الى عصرنا كثيرا من الاحترام الذي تسعى الامبريالية الاميركية لتجريده منه . وان جميع الشعوب المحبة للسلام والحرية تشعر بأنها مدينة دينا عظيما للشعب الفيتنامي العظيم الذي كاد ان يكون مسيح العصر وثائره الباسل . ولا يستطيع احد في العالم ان يثمن نضالكم بأية جائزة او مكافأة . ومع ذلك فبوسعنا ان نهنئكم من صميم القلب لانكم استطعتم ان تفرضوا على الاكاديمية السويدية المحايدة الاعتراف بالخدمة الجلى التي قدمتموها للسلام . ولكن ، ليس بوسعنا ان نتحمل هذه الاهانة الجارحة حتى العظم التي يسددها قرار الاكاديمية السويدية نحوكم ونحو قضية السلام باشراكه رسول الجريمة الاميركية العالمية فيها . ان هذا الاشراك بمثابة مكافأة لمندوب الجرائم الاميركية التي ارتكبها في بلادكم وفي بلاد اخرى من العالم . وليس بوسع احد في العالم ان يصدق ان مهارة ممثل الامبريالية الاميركية في المفاوضات هي التي أدت الى احلال السلام في جنوب شرق آسيا . كل الشعوب تدرك ان مهارة اقتحام الموت عند الشعب الفيتنامي وتصديه الباسل للتحدي الاميركي هو الذي انهى الحرب بانتصار الشعب الفيتنامي الشجاع وادى الى احلال السلام .

ولعل مثقفي العالم وادباءه والمناضلين من اجل السلام سيفرحون كثيرا لو بادرتم الى رد هذه الاهانة ، ورفضتم نصف الجائزة التي أعطي نصفها الآخر لرسول العذاب في العالم .

المحرر ١٨ تشرين الاول

بطاقة الى دمشق

ساعي البريد ينتظر ،
والفراشة تحارب ،
ولا تنتهي رسالتي اليك يا دمشق .
كان الاغاني أصيبت بحنجرة لا تغني ، منذ انتصبت على اصابع الشهداء .
الى أين ، الى أين ؟
ليس في المدى مكان ، لان زمانك يرتدي ملابس الميدان ، فيتدلى المدى خيطا من ثيابك .
الى أين ؟ واسمك المتوتر لا يحمل المزيد ، فقد يصبح المجد عادة يومية ، او بوابا في الجامع الاموي ..
دمشق .. يا دمشق !
تدخلين الحرب كما تدخل الفتيات ليالي الزفاف ..
وتخرجين من الحرب كما يخرج الاطفال من البحيرات .
وحين تقفين ، يا دمشق ، تتحول الجداول الى قامات .
وحين تمشين ، يا دمشق ، يتجمد الغروب على حافة الافق .
والى أين يا دمشق ؟
كان الاغاني أصيبت بحنجرة لا تغني ،
والشعراء يتعلمون الابجدية من حجارتك الصغيرة .
كوني اي شيء يا دمشق ، فلن تكوني الا دمشق .
كوني سكينا وقشرينا ، يتدفق منا بردى الذي يبقى كما كان : مواطنا عاديا يدفع الضرائب ، ويقصف بالقنابل ، ولا يرحل عن البيت .
كوني أي شيء يا دمشق ،
فلن تكوني الا دمشق التي لا تنزل عن الاشجار ، ولا تنحني .
الى أين .. الى أين ؟
ليس في المدى مكان ، لان زمانك يرتدي ملابس الميدان ، فيتدلى المدى خيطا من ثيابك .
دمشق .. يا دمشق !
ساعي البريد ينتظر ،
والفراشة تحارب ،
ولا تنتهي رسالتي اليك يا دمشق ..

المحرر ١٩ تشرين الاول

الريح والشرارة

اصحاب الاناقة الوطنية يسألون :
ـ اين الفلسطيني في الحرب ؟
ولا يجدون من يرد على اناقة السؤال ، لان المقاوم الفلسطيني ملتحم بحوار الموت مع العدو ، بعيدا عن ابصارنا ومسامعنا ـ

وآلات تصويرنا ..

انه هناك ينفجر ويفجر في اعماق العدو . ويستانف الثورة التي لم تتوقف يوما ، ومنعت غيرها من التوقف الطويل .

في المعركة ، لا يجوز الحديث آلا عن المعركة . ولهذا ينبغي الحديث عن المقاوم الفلسطيني لانه المعركة الدائمة امس واليوم وغدا . لانه حاضر في كل ومضة نار ، في كل رصاصة ، وفي كل خطوة نحو الصراع . ولانه غائب دائما عن اية سكينة ، وعن اية هدنة ، وعن اية مهادنة مع مصارعة العدو . لم يكف المقاوم الفلسطيني عن مناشدة الآخرين لخوض المعركة ، ولم يكن خلافه مع أحد من العرب الا بسبب اندفاعه ومحاولة دفعه الآخرين الى فتح المعركة المنشودة .

بهذه الحرب المشتعلة الآن ، يحقق الفلسطيني ذاته المتجددة . ينمي حياته التي تعرضت للاغتيال . يجسد حلمه المتوتر . يوسع دائرة الصراع مع العدو الذي لم يبدأه الآن . ومن هنا يكون حضور الفلسطيني الآن ، أشد تألقا وتوهجا وكثافة .

في أيام الهدوء النسبي ، كان الفلسطيني المقاوم هو الذي يشكل خللا في معادلة الامن الاسرائيلي . كان المحرض ، والمقلق ، والنموذج الذي حول الهزيمة الى حافز للرفض والتصدي والتحدي بدلا من ان تصيرحالة. كان رمزا يحمي روح الامة من الخمول وكان واقعا يجعلها تضغط وتعد بالتضحية من اجل هذه المعركة .

كان صغيرا ومحاصرا ؟ صحيح . ولكنه كان معنى كبيرا يفتح الآفاق . وكان توترا فاعلا في جسد السكينة .

ان المقاوم الفلسطيني يجدد حياته في اندلاع هذه المعركة . يحظى بشروط عمل ثوري افضل . يصير حالة شعبية عامة . يصير قابلا للحصار لجيوش وطنية قادرة على خلق امكانية النصر . فلا يصير قابلا للحصار في أسوأ الحالات ، وقابلا للرثاء العاطفي في أحسن الحالات . من هنا يرحب .. يرحب بالمعركة ويخوضها بايمان أشد . أن شرايين العرب تصب في قلبه . وهو يصب في قلوب العرب . ولا يجد نفسه الآن « مخربا » و « مورطا » ومتطاولا على « ظروف غير ملائمة » . فالواحد يلتحم في الكل .

وجهه لا يملأ الصورة ؟ صحيح ، لان ذلك دليل على وحدة الوجه العربي للقضية . الفلسطيني المقاوم عربي . والعربي المقاتل فلسطيني . وجوهر المعركة مع العدو ـ بمعناها الشامل ـ هو الصورة الوحيدة : أبعد من قطعة أرض . اعمق من جواز سفر . ماذا؟ هل نسينا ؟

ان الفلسطيني المقاوم ، اذ يبدو انه ضاع في الصورة ، فذلك تعبير عن تعريب فلسطين وفلسطنة العروبة . والفلسطيني يسكن قبضة النار ايام الحرب وايام اللاحرب من اجل فلسطين ومن اجل العرب . انه منطلق كالريح الخصبة في كل بقعة ارض محتلة . منطلق كالريح في القضية .. في النفسية .. في الايام الراكدة .. وفي الايام العاصفة .

انه الشرارة التي لم تنطفىء . ويسعد الشرارة .. يسعدها كثيرا ان تكبر النار المولودة وتطغى على كل شيء . ليس باستطاعة عدسة آلات التصوير التقاط صورة للريح والشرارة . ولماذا ننسى؟ لقد مزق الفلسطيني صورته منذ فرر ان يمزق جسده من اجل ان تخصب الارض والقضية ..

وهذه الحرب عرس فلسطيني ، لانها خطوة كبيرة نحو فلسطين ، لانها تجعل فلسطين أقرب . فلماذا يطرح اصحاب الاناقة الفكرية أسئلة توحي بأن فلسطين صارت ابعد ؟ لقد كان الفلسطيني المقاوم قبل هذه الحرب ، ويبقى بعدها . والحروب العربية ضد العدو وضد ما يمثله هي حرب فلسطينية . والثورة الفلسطينية ضد العدو وضد ما يمثله هي ثورة عربية .

ماذا اصابنا ؟ الم نتفق على الا نتحدث في المعركة الا عن المعركة؟ دعوه ، اذن ، المقاوم الفلسطيني يستانف حوار النار مع العدو مع سائر المقاتلين العرب . دعوه يجدد شباب الامل والهدف . دعوه يكمل عناق الارض الفلسطينية والعربية ، فانه يقاتل من اجلنا جميعا.. أمس واليوم وغدا .

المحرر

٢٠ تشرين الاول

لسنا أبناء العم توم

ـ هل عندكم نفط ؟

● كلا .

ـ كيف تعيشون اذن ؟

كان صعبا على الرجل النفطي ان يفهم كيف يمكن لشعب ان يعيش من مصادر ثروة اخرى غير النفط .

النفط هو انطونيو ، وانطونيو هو النفط !

لم تكن الحرب الاخيرة قد نشبت .

ولم يكن آل العرب قد اقتنعوا بأن اميركا ليست مقاطعة صغيرة في اسرائيل ! لم يكونوا قد صدقوا ان بوسع اميركا ـ اذا ارادت ـ ان تخنق اسرائيل بمجرد اغلاقها انبوبة المونات لمدة اسبوع واحد .

ولم يكن كل العرب قد ادركوا ان اميركا ليست حليفة للعدو ، ولكنها العدو ذاته . وكان الحب المجاني قد اعماهم .

ولم يكن العرب قد فهموا ان اميركا تحافظ على اسرائيل لكي تحتفظ الاخرى بدورها كحارس للمصالح الاميركية في القارة العربية ، واهمها : النفط العربي ..

ولم يكونوا قد اقتنعوا ، ايضا ، بأن سيل المال والسلاح المتدفق من اميركا الى اسطولها الثابت ـ اسرائيل لا يشكل نسبة كبيرة من ارباح النفط العربي .

الآن يدرك مزيد من العرب (او العربيين) النفطيين والعرب غير النفطيين (هكذا صرنا نصنف) ان وقود الطائرات والمدرعات الاسرائيلية يأتي من آبارهم . وان الشهداء العرب والاطفال العرب يسقطون بمصادر القوة العربية .. اننا نشهد شكلا من اشكال الانتحار او الطعن في الظهر ، فقوتنا هي التي تهددنا لانها مصدر تموين العدو ، حتى كدنا نقول اننا منتجو ومصدرو طاقة للعدو ..

متى يغضب المزيد من العرب .. في القاعدة .. في الشارع والمصنع والحقل والمكتب ؟ متى يرغمون حراس الآبار ـ وحفاري القبور ـ على اخراج اسلحتهم من صدورنا وتوجيهها الى صدور الاعداء ؟

متى يغضب العرب ، ويكفون عن ان يكووا ضحايا ثروتهم التي تشكل قوتهم اذا شاءوا ومصرعهم اذا شاءوا ؟ ان النفط سلاح ذو حدين ، فمتى نستخدم الحد السياسي ؟ ومتى ندرك ان بئر نفط، في هذه المرحلة ، قادر على اجراء تعديل في الخارطة السياسية العالمية ؟

ـ هل عندكم نفط ؟

● نعم .
كيف تتركوننا نموت اذن ؟

هكذا يجب ان نرد على السؤال السابق الذي وجهه العربي النفطي ، بعدما صار يعرف ان اميركا تنقل دماءنا الى شرايين اسرائيل ! بينما يعامل الدم كأنه سلعة تجارية محضة .

آن لنا ان ننقل السؤال الى الشارع .. ان نطرحه لاستفتاء الجماهير العربية الغاضبة ، لانها المؤهلة لكيفية التعبير عما تكنه من كراهية لاميركا . هي القادرة على الفعل . هي القادرة على التظاهر . هي القادرة على قلب الحسابات . وهي التي ستثبت للسيد الاميركي اننا لسنا ابناء اليوم ، اننا قوم الغارق في حب اسياده المتعاقبين على استعباده . لسنا اننا قوم ، فأميركا في قبضة ايدينا وبين اصابعنا : مصالح ومؤسسات ومعاهد .

آن لنا ان ننقل الغضب من القلب الى الشارع ـ فماذا ننتظر ؟!

المحرر
٢١ تشرين الاول

عالم لنا

في دخان المعارك العظيمة ، تصير الرؤية اوضح .

وها نحن نرى : ليس العالم معنا ، وليس العالم ضدنا . لان العالم ليس واحدا . فماذا نعني ، ماذا نعني بهذا المصطلح الغامض « الرأي العام العالمي » ؟

ان شعوب الاتحاد السوفياتي قد أعطتنا الدليل على ان قضية الحرية والنهوض الانساني واحدة . كان بوسع هذه الشعوب الاصيلة ان تعمل ساعات أقل ، وان تتمتع بحياة اكثر ترفا ، ولكنها تقاسمنا نتاج عرقها من اجل ان تصير الحرية اكبر .
هذا العالم لنا .

وان الولايات المتحدة الاميركية تعطي الدليل على ان قضية العدوان واحدة ، وان قربى الدم بين الغزاة لا تنفصم . كان بوسع الولايات المتحدة ان تجعل الشعوب أقل عذابا ، ولكنها تفعل كل شيء ، حتى التضحية بالاميركيين ، من أجل أن تصير الحرية أصغر .

هذا العالم ضدنا .

وفي دخان المعارك العظيمة ، تصير الرؤية اوضح .

ها هي فارة بأكملها تقريبا تنفض يدها الضخمة من صداقة قديمة قامت على سوء فهم . ان افريقيا التي لم تكشف عن كل خصوبتها وطهارتها حتى الآن تجعل عالمنا أوسع .
وهذا عالم لنا ايضا .

وهؤلاء الكتاب والمثقفون والفنانون في الغرب ليسوا لونا واحدا . ليسوا كلهم معنا ، وليسوا كلهم ضدنا . لقد اعلن شرفاؤهم هويتهم الانسانية ولم يكونوا محايدين تجاه معركة الحرية الساطعة التي نخوضها . واعلن آخرون انتماءهم الى « شرعية » الغزو الاسرائيلي ، وكشفوا مخزون العنصرية التي يكنونها ضد الشرق . بعضهم مرتزق . وبعضهم بلا ضمير . وبعضهم يعاني من فقر قضية فتزوج الصهيونية التي كانت موديلا ادبيا شائعا بين بعض كتاب الغرب .

والبعض الآخر يحب الشفقة . يريدنا ان نكون مادة حزن ملهمة. انه من هواة جمع بكائيات الشعوب الشرقية . وحين تلجأ هذه الشعوب الى استخدام العنف لترد على « حضارة العنف » تصبح خارجة عن معادلة الانسجام البشري !

هؤلاء لن يفهمونا ، لانهم لا يريدون ان يفهمونا .

وها هو العالم يعلن هويته : أصدقاء الحرية اصدقاؤنا . واصدقاء العنصرية اصدقاء اعدائنا . ولعل الصراع العربي ـ الصهيوني كان محكا لاختبار المعادن في الغرب . حين يتطوع الكاتب لخدمة الجريمة الصهيونية يكون قد اعطى ضميره لذئب مدلل ، وخان . خان اشرف ما يعنيه الانسان ، وخان الكتابة ايضا ..

فلماذا نقلق منهم ، ولماذا نلعنهم طالما انهم خرجوا من عالم الانسانية ، لانه عالمنا .

المحرر
٢٢ تشرين الاول

ثلاث بطاقات من حيفا

ـ ١ ـ

مقهى صغير على الشاطىء :

اخيرا ، أقول لامي : وجدت الفرح .

اعيد اليها مناديلها لانني لن أضيع .. لن أضيع كثيرا في هذه الايام . فالامهات كثيرات .

تعال يا خريف ! فقد كنت أقول دائما لاصدقائي اني احبك . وكنت لا أعترف أمام حبيبتي ولا أطيعها الا في الخريف . كانت كآبتي تصفر فيك وتذبل ، لان اوراق الشجر تخفيها عني وعن عيون الحراس الذين كانوا يأتون من الامواج .

والموج ، الآن ، أمامي عصافير . والغروب البرتقالي يقف على حافة الزبد ويشرب . وأنا في المقهى أنتقي ذكرياتي كما أشاء . انها تجلس أمامي مثل عنقود العنب . أختارها حبة حبة ، وألقي بالفاسد منها عبر النافذة المفتوحة .

كيف تتسع النافذة الصغيرة لكل هذا الافق الواسع ، ولعيون الشهداء الكثيرة ؟ أدخل أيها البحر .. ادخل صدري المثقوب بسهم الفرح القادم من أحذية الجنود المفاجئين . أدخل أيها البحر .. ادخل خيمة البدوي الذي يقف الآن على مئذنة النخيل ، ويدعو العالم الى غسل خطاياه في جراح الشهداء العرب .

تعالوا أيها الشهداء ، طوبى للتراب الذي تطاونه لانه يصير بحيرة . ويصير البحر بساطا حين تجيئون . تعالوا واستحموا في مياه فلسطين التي تتبعكم بجراحها وتقول : أغطيكم . ادخلوا أيها الشهداء نوافذ هذا الوطن حتى تطل على الجنة . مرروا أصابعكم على أشجاره لتصير الخضرة في لون النار الاسطورية .

وأخيرا ، أقول لامي : وجدت الفرح .

وأتابع زيارتي لهذا المقهى الجالس على شاطىء يفصل الخريف عن سائر الفصول .

وبوسعي الآن .. بوسعي الآن ان اكتب على ورق الشجر المتناثر لان الريح لن تضيع رسائلي !..

ـ ٢ ـ

الزنزانة

يحدث هذا .. يحدث هذا احيانا . يحدث هذا الآن : ان تركب حصانا في زنزانة وتسافر .

يحدث أن : تسقط جدران الزنزانة ، وتصير آفاقا لا حدود لها :

ـ ماذا فعلت بالحائط ؟

☐ اعدته الى الصخور .

ـ وماذا فعلت بالسقف ؟

☐ حولته الى سرج .

ـ وماذا فعلت بالقيد ؟

☐ حولته الى قلم .

غضب السجان . وضع حدا للمناقشة . قال انه لا يحب الشعر، ثم أغلق باب الزنزانة .

عاد اليّ في الصباح .. وصاح :

ـ من أين هذا الماء ؟

☐ من النيل .

ـ من أين هذا الشجر ؟

☐ من بساتين دمشق .

ـ ومن أين هذه الموسيقى ؟

☐ من قلبي .

غضب الحارس . وضع حدا للمناقشة . قال انه لا يحب الشعر، ثم اغلق باب الزنزانة .

وعاد في المساء :

ـ من أين هذا القمر ؟

☐ من ليالي بغداد .

ـ ومن أين هذه الكأس ؟

☐ من كروم الجزائر .

ـ ومن أين هذه الحرية ؟

☐ من القيد الذي وضعته أمس .

صار السجان حزينا . ورجاني أن أمنحه حريته .

ـ ٣ ـ

والشارع لي :

وغابات الصنوبر ايضا ، وحبيبتي لن تحزن .

ليست الحرب نزهة ولا احتفالا . ولكننا كنا نقتل بلا حرب ومن قلة الحرب .

لم تبتهج أم بولادة طفل ، كما تحتفل الارض الآن بميلاد الامة . عشرات السنين المكبوتة تستيقظ الآن من الحرمان ..

وهذا موسم الزيتون ، ولا نجمع الا شظايا القذائف وعيون الشهداء .

هذا مهر الارض التي تزف الى الرجال .

للصخرة شكل الكمثرى ومذاق الثدي .

الآن نحصي عدد الطائرات . وغدا نياس من احصاء عدد البطولات ، وأمواج العصافير .

والآن نحصي عدد الخطوات الباقية . أن فلسطين تتشبث باقدام المقاتلين . تعالوا .. تعالوا لان انتظاري طويل ، وما عاد في جسمي موضع لتلقي مزيد من سياط الشرطة .

الفتاة تنام معي في الليل ، وتحاربني في الصباح لانها تصير جندية .

والشاعرة الحسناء تبكي على قدميّ في الليل ، وتدل الشرطة على آثار قدميّ في الصباح .

لا تصدقوا اذاعة العدو .. لا تصدقوها ! ان الحراب تدور في شوارع قلبي وفي أوردتي منذ ربع قرن ، ولكن الشرطة تغطي الدخان المتصاعد من جلدي .

لا تصدقوا اذاعة العدو .. لا تصدقوها ! فالجنود يحرسون لساني ولكنهم لا يستطيعون حراسة قلبي . هل وصلتكم مشاعري ؟ هل وصلتكم ، أم ضلت الطريق ، واعتقلها حرس الحدود ؟

تعالوا .. تعالوا ! الارض تغلي من الشهوة ، والعاشق يرسف في الاغلال !

الدستور
٢٢ تشرين الاول

صدر حديثا :

- **علم النفس في مائة عام**
ج. فلوجل
ترجمة لطفي فطيح

- **نقد المعارضة العمالية**
لينين
ترجمة يوسف محمود

- **تاريخ الحركة الصهيونية**
(طبعة ثانية)
آلن تايلر
ترجمة بسام أبو غزاله

- **ثورات البروليتاريا في القرن العشرين :**
الثورة الالمانية ١٩١٨ ـ ١٩١٩
العفيف الاخضر

دار الطليعة ـ بيروت
ص.ب ١٨١٣